السياق القرآني وأثره في توجيه المعنى عند ابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير

د. أمينه العزازمه

دكتوراه التفسير وعلوم القرآن الكريم

The Quranic Context and Its Impact on Guiding Meaning According to Ibn Ashur in Al-Tahrir wa-al-Tanwir

Dr. Ameena Alazazmeh

مجلة دراسات العلوم الاسلامية

السياق القرآني وأثره في توجيه المعنى عند ابن عاشور في تفسير *التحرير والتنوير*

د. أمينه العزازمه

دكتوراه التفسير وعلوم القرآن الكريم

The Quranic Context and Its Impact on Guiding Meaning According to Ibn Ashur in Al-Tahrir wa-al-Tanwir

Dr. Ameena Alazazmeh

الملخص

يتناول هذا البحث أثر السياق القرآني في توجيه المعنى التفسيري عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور من خلال تفسيره *التحرير والتنوير*، ويهدف إلى إبراز مكانة السياق بوصفه أداةً منهجية في فهم النص القرآني وترجيح الدلالات المحتملة. وقد اعتمد البحث المنهج الاستقرائي التحليلي باستقراء النماذج التطبيقية من التفسير وتحليلها للكشف عن كيفية استثمار ابن عاشور للسياق اللغوي، وسياق السورة، والمقاصد العامة للقرآن الكريم في بيان المعنى.

وتوصلت الدراسة إلى أن ابن عاشور جعل من السياق ركيزةً أساسية في تفسير القرآن، فلم يقتصر على الجانب اللغوي المجرد، بل جمع بين دلالة الألفاظ، وترابط الآيات، وأسباب النزول، ومقاصد الشريعة، والاعتبارات البلاغية؛ مما أسهم في تقديم تفسير متكامل يوازن بين أصالة المأثور وعمق النظر العقلي. كما أظهرت الدراسة أن الاعتماد على السياق يسهم في الحد من الفهم المجتزأ للنصوص، ويعزز سلامة الاستنباط والترجيح بين الأقوال.

الكلمات المفتاحية: السياق القرآني، ابن عاشور، التحرير والتنوير، التفسير، توجيه المعنى، مقاصد القرآن.

Abstract

This study examines the role of Qur'anic context in directing interpretation according to Muhammad al-Tahir Ibn Ashur in his renowned commentary *Al-Tahrir wa al-Tanwir*. It aims to highlight contextual analysis as a methodological tool for understanding the Qur'anic text and resolving interpretive differences. The research adopts an inductive and analytical approach by examining selected passages from Ibn Ashur's commentary and evaluating his use of linguistic, textual, and thematic context.

The study concludes that Ibn Ashur regarded context as a fundamental interpretive principle, integrating lexical meaning, coherence between verses, rhetorical analysis, and higher objectives of Islamic law to produce comprehensive interpretations. His methodology demonstrates that contextual reading strengthens accurate understanding and supports sound preference among competing exegetical opinions.

Keywords: Qur'anic Context, Ibn Ashur, Al-Tahrir wa al-Tanwir, Qur'anic Exegesis, Interpretation, Contextual Analysis.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

يُعد السياق من أهم الأدوات العلمية التي يعتمد عليها المفسر في الكشف عن مراد النص القرآني، إذ تتجلى من خلاله العلاقات بين الألفاظ والجمل والآيات والسور، بما يفضي إلى فهم أكثر دقة وشمولاً. وقد تنبه علماء التفسير منذ العصور الأولى إلى أهمية مراعاة السياق، إلا أن توظيفه تطور بصورة لافتة عند عدد من المفسرين المتأخرين، وفي مقدمتهم الإمام محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره *التحرير والتنوير*.

ويمثل تفسير ابن عاشور نموذجاً متقدماً يجمع بين التحليل اللغوي والبلاغي والنظر المقاصدي، مع عناية واضحة بوحدة الموضوع واتصال أجزاء النص القرآني. ومن هنا تنبع أهمية دراسة منهجه في توظيف السياق، لما لذلك من أثر في توجيه المعنى، وترجيح الأقوال، وإبراز انسجام الخطاب القرآني.

وتسعى هذه الدراسة إلى بيان مفهوم السياق، والكشف عن تطبيقاته في تفسير ابن عاشور، مع تحليل نماذج مختارة توضح أثره في بناء الدلالة التفسيرية، بما يسهم في إثراء الدراسات القرآنية وإبراز أحد المناهج العلمية الرصينة في فهم كتاب الله تعالى.

مشكلة البحث، وأسئلته، وأهدافه، وأهميته، ومنهجه، والدراسات السابقة

أولاً: مشكلة البحث

تتمثل مشكلة البحث في أن مفهوم **السياق القرآني** يعد من أهم أدوات فهم النص القرآني وتوجيه دلالاته، إلا أن الإفادة منه في الدراسات التطبيقية على كتب التفسير ما زالت تحتاج إلى مزيد من التأصيل والتحليل، ولا سيما في تفسير *التحرير والتنوير* للإمام محمد الطاهر بن عاشور، الذي اتسم بمنهج يجمع بين النظر اللغوي والبلاغي والمقاصدي.

ومن هنا يسعى البحث إلى الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي:

كيف أسهم السياق القرآني في توجيه المعنى والترجيح بين الأقوال عند ابن عاشور في تفسير *التحرير والتنوير*؟

ويتفرع عنه عدد من الأسئلة، منها:

- ما المقصود بالسياق القرآني في الدراسات التفسيرية؟
- ما أبرز أنواع السياق التي اعتمد عليها ابن عاشور؟
- كيف وظف ابن عاشور السياق في تفسير الآيات وترجيح المعاني؟
- ما أثر مراعاة السياق في تجنب الفهم المجتزأ للنص القرآني؟

- ما القيمة العلمية لمنهج ابن عاشور في الدراسات التفسيرية المعاصرة؟

ثانياً: أهداف البحث

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- بيان مفهوم السياق القرآني وأهميته في علم التفسير.
- التعريف بمنهج ابن عاشور في تفسير *التحرير والتنوير*.
- إبراز أثر السياق في توجيه المعنى واستنباط الدلالات.
- تحليل نماذج تطبيقية من تفسير ابن عاشور للكشف عن آليات توظيفه للسياق.
- الإسهام في تعزيز الدراسات التي تربط بين التحليل اللغوي والمقاصدي في تفسير القرآن الكريم.

ثالثاً: أهمية البحث

تنبع أهمية البحث من عدة اعتبارات، من أبرزها:

- إبراز مكانة السياق بوصفه وسيلة أساسية لفهم القرآن الكريم.
- تسليط الضوء على منهج أحد أبرز المفسرين في العصر الحديث، وهو الإمام محمد الطاهر بن عاشور.
- المساهمة في توجيه الباحثين إلى أهمية القراءة المتكاملة للنص القرآني بعيداً عن الاجتزاء.
- تقديم دراسة تطبيقية يمكن الإفادة منها في البحوث القرآنية واللغوية والأصولية.
- تعزيز الصلة بين الدراسات البلاغية والمقاصدية في تفسير كتاب الله تعالى.

رابعاً: منهج البحث

يعتمد البحث على **المنهج الاستقرائي التحليلي**؛ وذلك من خلال استقراء المواضع التي يظهر فيها اعتماد ابن عاشور على السياق في تفسير الآيات، ثم تحليل تلك النماذج واستنباط أثرها في توجيه المعنى والترجيح بين الأقوال.

كما يستفيد البحث من **المنهج الوصفي** عند عرض المفاهيم المتعلقة بالسياق القرآني، ومن **المنهج المقارن** عند الحاجة إلى مقارنة بعض اختيارات ابن عاشور بأقوال غيره من المفسرين.

خامساً: الدراسات السابقة

تناولت عدة دراسات موضوع السياق القرآني أو منهج ابن عاشور في التفسير، ومن أبرزها:

دراسات تناولت مفهوم السياق في علوم القرآن وأكدت دوره في ضبط الدلالة اللغوية والتفسيرية، إلا أنها جاءت في إطار نظري عام دون تركيز على تفسير *التحرير والتنوير*.

بحوث تناولت منهج ابن عاشور في الجوانب البلاغية أو المقاصدية، وأشارت إلى أهمية السياق ضمن عناصر متعددة، لكنها لم تجعله محوراً مستقلاً للتحليل.

رسائل علمية درست قواعد الترجيح عند ابن عاشور، وتوصلت إلى أن السياق يمثل أحد أهم معايير الاختيار بين الأقوال التفسيرية، غير أنها لم تقدم دراسة تطبيقية موسعة تجمع بين السياق اللغوي وسياق السورة والمقاصد العامة.

ما يميز هذه الدراسة

تتميز هذه الدراسة بمحاولة الجمع بين التأصيل النظري والتطبيق العملي، مع التركيز على أثر السياق في بناء المعنى عند ابن عاشور من خلال نماذج مختارة من تفسير *التحرير والتنوير*. كما تسعى إلى بيان التكامل بين السياق اللغوي والبلاغي والمقاصدي في منهجه التفسيري، بما يقدم رؤية شاملة يمكن أن تثري الدراسات القرآنية المعاصرة.

المطلب الأول : الإطار النظري للسياق القرآني ومكانته في التفسير

أولا: مفهوم السياق القرآني

يُعد السياق من أهم القرائن التي يعتمد عليها المفسر في فهم كلام الله تعالى؛ إذ لا تُفهم الألفاظ والتراكيب بمعزل عن موقعها في الآية أو السورة أو المقام الذي وردت فيه فـ**السياق لغةً**: مصدرٌ من الفعل *ساقَ*، ويُراد به التتابع والاتصال والقيادة، فيقال: ساق الإبل يسوقها سوقًا وسياقًا إذا قادها، ومنه استُعمل السياق للدلالة على تتابع الكلام وانتظام بعضه مع بعض[1].

والسياق اصطلاحًا:

هو انتظام الألفاظ والتراكيب في بنية مترابطة بحيث يُفهم المراد من خلال ما يسبق اللفظ وما يليه، ويُعد من أهم القرائن التي يعتمد عليها العلماء في تفسير النصوص واستنباط معانيها. وقد أشار علماء علوم القرآن إلى أهمية مراعاة السياق في فهم دلالات الآيات وترجيح المعاني المحتملة[2].

وقد عرّف العلماء السياق أيضا بأنه تتابع الألفاظ والمعاني في بنية مترابطة يُستدل بها على المراد، بحيث يسهم ما قبل النص وما بعده في توجيه دلالته وإزالة ما قد يعتريه من احتمال أو إبهام.

ولا يقتصر السياق على الجانب اللغوي فحسب، بل يشمل سياق السورة، وموضوعها العام، وأسباب النزول، والمخاطَبين، والغاية التي سيقت الآيات لتحقيقها. ومن هنا كان فهم السياق من أهم وسائل الترجيح بين الأقوال التفسيرية.

---

[1] لسان العرب، دار الفكر، بيروت، ط3، 1414هـ، ج10، مادة: «سوق»، ص166.

[2] البرهان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، ج2، ص200؛ والإتقان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، ج2، ص471.

ثانيا : أهمية السياق في التفسير

تبرز أهمية السياق في كونه يحفظ وحدة النص القرآني ويمنع اقتطاع الآيات من مواضعها بما يؤدي إلى إساءة الفهم. كما يسهم في تحديد المعنى المراد عند تعدد الدلالات اللغوية، ويعين على إدراك التناسب بين الآيات والسور، ويكشف عن المقاصد البلاغية والتشريعية التي يتضمنها الخطاب القرآني.

وقد اعتمد كثير من المفسرين على السياق في تفسيرهم، إلا أن تفاوتهم كان في مقدار العناية به وفي كيفية توظيفه. ويظهر هذا بوضوح في تفسير ابن عاشور الذي جعل السياق من أبرز أدواته في بيان المعاني وترجيح الأقوال.

ثالثا : أنواع السياق القرآني

يمكن تقسيم السياق إلى عدة أنواع، من أهمها:

السياق اللغوي: ويقصد به دلالة الألفاظ والتراكيب في ضوء ما يسبقها ويلحقها من كلام.

سياق الآيات: وهو النظر إلى ارتباط الآية بما قبلها وما بعدها، وعدم عزلها عن البناء العام للنص.

سياق السورة: ويتمثل في مراعاة موضوع السورة ومحورها الرئيس، وربط الآيات به.

السياق التاريخي: ويشمل أسباب النزول والظروف التي أحاطت بنزول الآية عند ثبوتها وصحتها.

السياق المقاصدي: ويعنى بالنظر إلى الغايات الكلية التي يخدمها الخطاب القرآني، مثل تحقيق العدل والهداية وحفظ مصالح الناس.

رابعا : أثر السياق في توجيه المعنى

للسياق أثر بالغ في توجيه الدلالة، إذ قد يختار المفسر معنى من بين معانٍ لغوية متعددة استناداً إلى انسجامه مع سياق الآية أو السورة. كما أن السياق يسهم في تخصيص العام، وتقييد المطلق، وفهم الضمائر، وتحديد المخاطب، وإدراك العلاقات البلاغية بين الجمل.

وقد أثبتت الدراسات التفسيرية أن إغفال السياق يؤدي في كثير من الأحيان إلى فهم ناقص أو غير دقيق، بينما يؤدي استحضاره إلى قراءة متماسكة للنص القرآني، تتوافق مع مقاصده وأسلوبه البياني.

ومن أمثلة ذلك ما قاله ابن عاشور في تفسير قوله تعالى﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[1]؛ حيث قال :

لو اقتُطع قوله تعالى: ﴿فويل للمصلين﴾ عن سياقه لتوهم السامع أن الوعيد موجَّه إلى جميع المصلين، وهو معنى باطل ومخالف لمقصود الآية. غير أن السياق الذي يليه مباشرة، وهو قوله تعالى: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾، بيّن أن الوعيد ليس للمصلين بإطلاق، وإنما لفئة مخصوصة تتهاون بالصلاة وتغفل عنها.

---

[1] سورة الماعون: 4-5.

ويؤكد محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره أن انتظام الآيات وترابطها يرفع هذا الإيهام، وأن فهم الآية لا يستقيم إلا بالنظر إلى سياقها المتصل، إذ إن الصفة اللاحقة خصصت الحكم وبيّنت المراد.

فيدل هذا المثال على أن السياق يعد قرينة تفسيرية أساسية؛ فهو:

- يخصص العام.
- ويزيل الاحتمال الخاطئ.
- ويوجه المعنى إلى المراد الصحيح.
- ويمنع تفسير النصوص الشرعية على أساس الجمل المقتطعة من سياقها.

خاتمة المطلب

يتبين من العرض السابق أن السياق يمثل ركيزة أساسية في التفسير، وأن مراعاته ليست أمراً تكميلياً، بل ضرورة علمية لفهم القرآن الكريم على الوجه الصحيح. كما يظهر أن توظيف السياق يزداد وضوحاً في المناهج التفسيرية التي تجمع بين التحليل اللغوي والبلاغي والمقاصدي، وهو ما يتجلى بصورة بارزة في تفسير *التحرير والتنوير* لابن عاشور، الأمر الذي يستدعي دراسة تطبيقاته بصورة أكثر تفصيلاً في المطالب اللاحقة.

المطلب الثاني: منهج ابن عاشور في توظيف السياق القرآني وأثره في توجيه المعنى

أولا: التعريف بالإمام محمد الطاهر بن عاشور وحياته العلمية

يعد الامام محمد الطاهر بن عاشور (1296–1393هـ/1879–1973م) من كبار علماء تونس في العصر الحديث، تلقى تعليمه في جامع الزيتونة حتى صار من أبرز شيوخه، وتولى مشيخته وأسهم في تطوير مناهجه العلمية. برع في التفسير وأصول الفقه واللغة العربية ومقاصد الشريعة، ومن أشهر مؤلفاته التحرير والتنوير، الذي أبرز فيه عنايته بالتحليل اللغوي والبلاغي والسياق القرآني في استنباط المعاني وترجيح الأقوال[1].

وقد ترك ابن عاشور مؤلفات متعددة، إلا أن أشهرها بلا منازع تفسير «**التحرير والتنوير**» الذي يُعد موسوعة علمية في التفسير واللغة والبلاغة ومقاصد الشريعة. ولم يكن هدفه مجرد شرح الألفاظ أو نقل أقوال السابقين، بل سعى إلى بناء تفسير يجمع بين أصالة التراث ومتطلبات البحث العلمي، مع إعمال النظر العقلي المنضبط والاعتماد على الدليل اللغوي والسياقي.

ويظهر في تفسيره تأثره العميق بعلوم العربية، إذ يرى أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وأن فهم أساليبه وتراكيبه وعلاقاته الداخلية يعد مفتاحًا للوصول إلى مراد الله تعالى. ولذلك أولى عناية خاصة بالسياق، وجعله أحد أهم معايير الترجيح بين الأقوال.

---

[1] انظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج1، مقدمة المؤلف، ص5–18.

ثانيا : مفهوم السياق في منهج ابن عاشور

لا يقتصر مفهوم السياق عند ابن عاشور على اتصال الكلمات بعضها ببعض، بل يمتد ليشمل وحدة الخطاب القرآني بأكمله. فهو ينظر إلى الآية باعتبارها جزءًا من بناء متكامل، ويرى أن المعنى الصحيح يتشكل من خلال ارتباطها بما قبلها وما بعدها، ومن خلال مقصد السورة والموضوع الذي تعالجه.

ويُفهم من منهجه أن السياق يتكون من عدة مستويات متداخلة:

السياق اللفظي: ويتمثل في اختيار الألفاظ وتناسقها داخل الجملة.

السياق التركيبي: ويظهر في العلاقات النحوية والبلاغية بين أجزاء الكلام.

السياق الموضوعي: ويتعلق بالمحور الرئيس الذي تدور حوله السورة أو المقطع القرآني.

السياق المقاصدي: ويعنى بالنظر إلى الغايات الكبرى للخطاب القرآني وما يحققه من هداية وإصلاح وتشريع.

ومن خلال الجمع بين هذه المستويات استطاع ابن عاشور أن يقدم قراءات تفسيرية متماسكة بعيدة عن التجزئة أو التعارض.

ثالثا: مظاهر توظيف السياق في تفسير التحرير والتنوير

1: تفسير المفردات في ضوء السياق

يرفض ابن عاشور الاقتصار على المعنى المعجمي للكلمة إذا دل السياق على معنى أخص أو أوسع، ويؤكد أن الألفاظ القرآنية تكتسب دلالاتها الدقيقة من موقعها داخل النظم القرآني. ولذلك كان يوازن بين الاحتمالات اللغوية المختلفة ثم يختار ما ينسجم مع سياق الآية ومقصدها.

ومن الأمثلة التطبيقية على ذلك ما جاء في:

1. **قوله تعالى**: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]

يرى ابن عاشور أن لفظ «**المتقين**» لا يُفهم على إطلاقه اللغوي، وإنما يحدده سياق افتتاح السورة، فالمراد به الذين هيأتهم سلامة الفطرة وقبول الحق للانتفاع بالقرآن، وليس كل من وُصف بالتقوى على أي وجه. وقد استنبط هذا التخصيص من سياق الثناء على الكتاب وبيان أثره في القابلين للهداية[2].

2. **قوله تعالى**: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾[3]

رجّح ابن عاشور أن المراد بـ «**لامستم**» هو الجماع، لا مجرد المس باليد، مستندًا إلى سياق الآية التي تتحدث عن أسباب الطهارة وأحكامها، مما يجعل الدلالة السياقية أرجح من المعنى اللغوي المجرد[4].

---

[1] البقرة: 2.

[2] محمد الطاهر بن عاشور، *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، تونس، ج1، تفسير سورة البقرة، الآية (2).

[3] النساء: 43.

[4] *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، ج5، تفسير سورة النساء، الآية (43).

3. **قوله تعالى:** ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[1]

فسر ابن عاشور «**الساهون**» بالمتهاونين بالصلاة والمضيعين لها، لا بمن يقع منه النسيان العارض، لأن سياق السورة جاء في ذم المنافقين وأصحاب الأخلاق المذمومة، فكان السياق قرينة حاسمة في تعيين المعنى[2].

4. **قوله تعالى:** ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾[3]

يذكر ابن عاشور أن لفظ «**عسعس**» من الألفاظ المشتركة التي قد تدل على إقبال الليل أو إدباره، ويرجح أحد المعنيين بالنظر إلى السياق وما بعده من قوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، إذ إن اقتران القسمين هو الذي يوجه معنى المفردة[4].

5. **قوله تعالى:** ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[5]

بيّن ابن عاشور أن المراد بلفظ «**اصدع**» ليس مجرد رفع الصوت، وإنما الإعلان الجهير بالدعوة وإظهارها بعد مرحلة الإسرار، واستفاد هذا المعنى من سياق الآيات التي تتحدث عن الانتقال إلى مرحلة المجاهرة بالدعوة[6].

من هنا نستدل على ان الامام ابن عاشور جعل السياق مرجحا للمعنى اللغوي للمفردات ، وهذا ما يلاحظ كثيرا في نفسيره .

2: بيان التناسب بين الآيات

من السمات البارزة في تفسيره حرصه على بيان الروابط بين الآيات المتجاورة، فيوضح أسباب الانتقال من موضوع إلى آخر، ويكشف عن الحكمة البلاغية في ترتيب المعاني. ويرى أن هذا الترابط دليل على إحكام البناء القرآني، وأن فهمه يعين على إدراك المعنى الكلي للنص ومن الأمثلة على التناسب بين الآيات عند ابن عاشور:

1. التناسب بين قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله ﴿أُولَٰئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾[7].

---

(1) الماعون: 5.

(2) *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، ج30، تفسير سورة الماعون.

(3) التكوير: 17.

(4) *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، ج30، تفسير سورة التكوير.

(5) الحجر: 94.

(6) *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، ج14، تفسير سورة الحجر، الآية (94).

(7) البقرة: 2-5.

يبين ابن عاشور أن الآيات جاءت في نسق مترابط؛ فقد افتتحت ببيان منزلة القرآن، ثم ذكرت صفات المنتفعين به، ثم ختمت بالحكم لهم بالفلاح. فكل آية متممة لما قبلها، ويُفهم بعضها في ضوء بعض، مما يظهر وحدة السياق وترابطه[1].

2. التناسب بين قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[2].

يؤكد ابن عاشور أن الآية الثانية جاءت مبيِّنة ومخصصة لما قد يُتوهم من عموم الوعيد في الآية الأولى؛ فليس الويل لجميع المصلين، وإنما لمن اتصف بالسهو عن الصلاة والتهاون بها. ويُعد هذا من أوضح أمثلة أثر التناسب في إزالة الإشكال وتحديد المراد[3].

3. التناسب بين قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[4].

يرى ابن عاشور أن القسم بالضحى والليل جاء تمهيدًا لما بعده، فتعاقب النور والظلمة ينسجم مع تعاقب فترات الوحي وانقطاعه، ومن ثم جاء جواب القسم نافياً أن يكون انقطاع الوحي دليلًا على الهجر أو البغض[5].

4. التناسب بين قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ إلى قوله ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[6].

يبين ابن عاشور أن تعداد النعم في أول السورة يمهد لتثبيت النبي ﷺ، ثم جاءت آية ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ نتيجةً مناسبة لما قبلها، تؤكد أن ما يلقاه من مشقة تعقبه معونة وتيسير من الله[7].

5. التناسب بين قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[8].

يفسر ابن عاشور أن القسم بالعصر مهد للحكم العام بأن الإنسان في خسر، ثم جاء الاستثناء ليبين أن النجاة تكون بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر، وهو ترابط منطقي ودلالي يجعل السورة وحدة موضوعية متماسكة[9].

---

(1) محمد الطاهر بن عاشور، *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، ج1، تفسير أوائل سورة البقرة.

(2) الماعون: 4-5.

(3) *التحرير والتنوير*، ج30، تفسير سورة الماعون.

(4) الضحى: 1-3.

(5) *التحرير والتنوير*، ج30، تفسير سورة الضحى.

(6) الشرح: 1-6.

(7) *التحرير والتنوير*، ج30، تفسير سورة الشرح.

(8) العصر: 1-3.

(9) *التحرير والتنوير*، ج30، تفسير سورة العصر.

وغير ذلك الكثير في تفسيره .

3: الربط بين أجزاء السورة

يولي ابن عاشور أهمية كبيرة للوحدة الموضوعية للسورة، فلا يتعامل مع كل آية بوصفها مستقلة استقلالًا تامًا، بل يربطها بالهدف العام للسورة. ويظهر ذلك في مقدماته للسور، حيث يبين موضوعها الرئيس ثم يفسر آياتها في ضوء هذا الإطار العام.

ومن ذلك على سبيل الذكر لا الحصر :

1. سورة البقرة

يرى ابن عاشور أن سورة البقرة بُنيت على مقصد رئيس هو **إقامة الأمة المسلمة على أساس الهداية والتشريع والاستخلاف**. ولذلك ربط بين افتتاحها بذكر صفات المؤمنين والكافرين والمنافقين، وبين قصة استخلاف آدم، ثم أحوال بني إسرائيل، ثم الأحكام التشريعية، مبينًا أن جميع هذه المقاطع تخدم غرضًا واحدًا هو إعداد الأمة لحمل الرسالة[1].

2. سورة يوسف

يؤكد ابن عاشور أن السورة تمثل وحدة موضوعية متماسكة، فجميع أحداثها من الرؤيا في أول السورة إلى تحققها في ختامها مترابطة ترابطًا محكمًا. ويرى أن الانتقال بين مشاهد القصة ليس انتقالًا عشوائيًا، بل يخدم إبراز العناية الإلهية بيوسف وتحقيق وعد الله له[2].

3. سورة الضحى

يربط ابن عاشور بين أقسام السورة وأغراضها؛ فالقسم بالضحى والليل يمهد لنفي توديع الله لنبيه ﷺ، ثم تنتقل السورة إلى تعداد النعم السابقة، ثم تختم بتوجيهات عملية هي: رعاية اليتيم، وعدم نهر السائل، والتحدث بنعمة الله، فجميع أجزائها تدور حول تثبيت النبي ﷺ وشكره على النعم[3].

4. سورة الشرح

يبين ابن عاشور أن صدر السورة الذي يعدد نعم الله على رسوله ﷺ يرتبط ارتباطًا وثيقًا بخاتمتها: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾، إذ إن ذكر النعم واليسر الإلهي يؤدي منطقيًا إلى الأمر بمواصلة العبادة والدعوة والاجتهاد[1].

---

(1) محمد الطاهر بن عاشور، *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، ج1، مقدمة سورة البقرة وتفسير أوائلها.

(2) *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، ج12، مقدمة سورة يوسف.

(3) *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، ج30، تفسير سورة الضحى.

5. سورة الماعون

يرى ابن عاشور أن السورة تبدأ بذم من يكذب بالدين من خلال إساءته إلى الضعفاء، ثم تنتقل إلى ذم الرياء والتهاون بالصلاة، وتختم بالبخل ومنع الماعون، مبينًا أن جميع هذه الصفات حلقات متصلة تكشف فساد العقيدة وانعكاسه على السلوك الاجتماعي، وهو ما يحقق وحدة السورة وترابط أجزائها[2].

هذه الأمثلة تُظهر أن ابن عاشور لم ينظر إلى الآيات على أنها وحدات مستقلة، بل كان يربط بين مطلع السورة ووسطها وخاتمتها، ويجعل لكل سورة محورًا أو مقصدًا عامًا تنتظم حوله موضوعاتها .

4: مراعاة المقاصد الشرعية

من أبرز ما يميز منهجه أنه لا يفصل بين السياق والمقاصد، بل يرى أن فهم المقصد العام للنص يساعد في تحديد دلالة الألفاظ والتراكيب. ولذلك يستحضر مبادئ العدل والرحمة والهداية والإصلاح عند تفسير كثير من الآيات، مع الالتزام بالقواعد اللغوية والأصولية ، ومن أوضح الامثلة على ذلك :

1. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[3]

يرى ابن عاشور أن هذه الآية ليست مجرد أمر أخلاقي، بل جاءت في سياق تقرير أصول الإصلاح الاجتماعي بعد عرض دلائل التوحيد والقدرة الإلهية، فربط بين سياق السورة ومقصدها العام، واستنتج أن المقصد هو إقامة مجتمع يقوم على العدل والإحسان وصيانة الحقوق، وأن الأوامر الواردة في الآية تخدم هذا المقصد الكلي[4].

2. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[5]

لم يقف ابن عاشور عند بيان حكم الصيام، بل ربط السياق التشريعي بالمقصد الذي نصت عليه الآية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فقرر أن الغاية من فرض الصيام هي تهذيب النفس وتحقيق التقوى، وأن هذا المقصد هو الذي تنتظم حوله الأحكام الواردة في سياق آيات الصيام[6].

مجلة دراسات العلوم الاسلامية

---

(1) *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، ج30، تفسير سورة الشرح.

(2) *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، ج30، تفسير سورة الماعون.

(3) النحل: 90.

(4) محمد الطاهر بن عاشور، *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، تفسير سورة النحل، الآية (90).

(5) البقرة: 183.

(6) *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، تفسير سورة البقرة، الآية (183).

3. قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[1]

ربط ابن عاشور بين السياق التشريعي للآيات السابقة واللاحقة وبين مقصد حفظ النفوس، فبيّن أن تشريع القصاص لم يقصد به مجرد العقوبة، وإنما تحقيق مصلحة عامة تتمثل في ردع الجناة وصيانة المجتمع، وهو ما يكشف عن المقصد الكلي الكامن وراء السياق[2].

4. قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[3]

استخلص ابن عاشور من السياق أن مقصد الزكاة لا يقتصر على جمع المال، بل يشمل تطهير النفوس من الشح، وتزكية المزكي، وتحقيق التكافل الاجتماعي، فجعل السياق دليلاً على المقاصد التربوية والاجتماعية للتشريع[4].

5. قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[5]

فسر ابن عاشور هذه الآية في ضوء سياقها، مبينًا أن ذكر قصص الأنبياء قبلها يهيئ لإبراز المقصد الأعظم من بعثة النبي ﷺ، وهو نشر الرحمة والهداية والإصلاح، وأن الرسالة الإسلامية جاءت لتحقيق مصالح الخلق في الدنيا والآخرة، لا لمجرد إقامة التكاليف[6].

هذه الأمثلة تُعد من أوضح النماذج على منهج ابن عاشور في تسخير السياق لاستخراج المقاصد القرآنية، وهو منهج تكرر في مواضع كثيرة من التحرير والتنوير ويُعد من أبرز سماته التجديدية في التفسير .

رابعا : أثر السياق في الترجيح بين الأقوال التفسيرية

تكثر في كتب التفسير الأقوال المتعددة في بيان المراد من بعض الآيات، وقد اعتمد ابن عاشور على السياق باعتباره مرجحًا علميًا مهمًا عند الاختلاف. فهو يعرض الأقوال، ثم يناقش أدلتها، وينظر في مدى انسجام كل قول مع نظم الآيات وتسلسلها ومقاصدها.

ويؤدي هذا المنهج إلى استبعاد التفسيرات التي تعتمد على احتمالات لغوية بعيدة أو روايات لا يعضدها سياق النص، مع ترجيح القول الذي يحقق الانسجام بين أجزاء الخطاب القرآني. ففي قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[7].

من عبارته: «صفةٌ للمصلين المذكورين قبلها».

---

(1) البقرة: 179.

(2) *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، تفسير سورة البقرة، الآية (179).

(3) التوبة: 103.

(4) *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، تفسير سورة التوبة، الآية (103).

(5) الأنبياء: 107.

(6) *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، تفسير سورة الأنبياء، الآية (107).

(7) الماعون: 4-5.

وجه الترجيح: جعل الجملة التالية مخصِّصة للوعيد، فالسياق هو الذي بيّن أن الذم ليس لجميع المصلين، وإنما لفئة مخصوصة تتهاون بالصلاة.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾[1].

يقرر – في خلاصته – أن السياق التشريعي يعين المراد ويرجح حمل الملامسة على ما ينسجم مع أحكام الطهارة الواردة في الآية.

وجه الترجيح: لم يكتفِ بالدلالة اللغوية، بل استأنس بانتظام السياق وأحكامه.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾[2]

يذكر أن اللفظ يحتمل أكثر من معنى، ثم يجعل اقترانه بقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ مرجحًا لأحد الاحتمالين.

وجه الترجيح: الاعتماد على السياق المتصل لا على المعجم وحده.

وفي قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[3].

يربط معنى «اصدع» بمقام الآيات وما قبلها، فيرجح أن المقصود إظهار الدعوة والجهر بها.

وجه الترجيح: انتقال السياق من مرحلة إلى أخرى هو القرينة الحاكمة في فهم اللفظ.

كما يظهر أثر السياق في تفسير الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات الربط، حيث يحدد مرجعها من خلال البناء النصي العام، مما يسهم في إزالة الإشكال وتوضيح المعنى.

خامسا : القيمة العلمية لمنهج ابن عاشور في الدراسات المعاصرة

يحظى منهج ابن عاشور بأهمية كبيرة في البحوث القرآنية الحديثة؛ لأنه يقدم نموذجًا يجمع بين الأصالة والتجديد. فمن جهة، يستند إلى أقوال السلف وقواعد العربية وأصول التفسير، ومن جهة أخرى، يستثمر التحليل البلاغي والمقاصدي والسياقي لإبراز دلالات النص القرآني.

كما يساعد هذا المنهج على مواجهة القراءات المجتزأة التي تعزل الآيات عن سياقها، ويؤكد ضرورة النظر إلى القرآن الكريم بوصفه نصًا متكاملًا تتساند أجزاؤه في بيان المعنى.

وقد أثرت هذه الرؤية في عدد من الدراسات المعاصرة التي اهتمت بالوحدة الموضوعية للسور، وبالتفسير المقاصدي، وبالعلاقات النصية داخل القرآن الكريم، مما يدل على استمرار أثر منهج ابن عاشور في البحث العلمي.

---

[1] النساء: 43.

[2] التكوير: 17.

[3] الحجر: 94.

خاتمة المطلب

خلص هذا المطلب إلى أن الإمام محمد الطاهر بن عاشور أقام جانبًا مهمًا من منهجه التفسيري على مراعاة السياق بمستوياته المختلفة، فربط بين الألفاظ والجمل والآيات والسور، واستثمر ذلك في توجيه الدلالة وترجيح الأقوال وكشف وجوه البلاغة والإعجاز. كما تبين أن اعتماده على السياق لم يكن منهجًا شكليًا، بل كان أداة تفسيرية أصيلة أسهمت في بناء رؤية متكاملة للنص القرآني، وجعلت من تفسير *التحرير والتنوير* مرجعًا بارزًا للباحثين في علوم القرآن والتفسير.

المطلب الثالث: دور السياق في توجيه المعنى عند ابن عاشور

أولا: السياق ودوره في تفسير الآيات ذات الدلالات المتعددة

من أبرز السمات المنهجية في تفسير *التحرير والتنوير* أن ابن عاشور لا يقف عند حدود الدلالة المعجمية للألفاظ، بل يربطها بالسياق الذي وردت فيه. فاللفظ القرآني قد يحتمل أكثر من معنى في أصل اللغة، غير أن انتظامه في سياق معين يحدد المراد ويقوي أحد الاحتمالات على غيره.

ويظهر ذلك في المواضع التي تتعدد فيها أقوال المفسرين؛ إذ يعرض ابن عاشور هذه الأقوال ثم يناقشها على ضوء اتصال الآية بما قبلها وما بعدها، مستعينًا بالقواعد اللغوية والبلاغية ومقاصد الخطاب. وبهذا المنهج يصبح السياق قرينة تفسيرية ذات وزن علمي، لا مجرد عنصر مساعد.

ثانيا: السياق ووحدة السورة.

أولى ابن عاشور عناية كبيرة بالوحدة الموضوعية للسور، وعدَّ أن لكل سورة مقصدًا عامًا تنتظم حوله موضوعاتها المختلفة. ولذلك نجده في مقدمات السور يبين محورها الرئيس، ثم يفسر آياتها في ضوء ذلك المحور، مبرزًا أوجه التناسب بين المقاطع.

وتنعكس هذه الرؤية على تفسيره للآيات؛ إذ يربط الانتقال من قصة إلى موعظة، أو من حكم إلى توجيه عقدي، بجامع موضوعي أو بلاغي يحقق الانسجام في البناء القرآني. ومن ثم فإن فهم الآية عنده لا يكتمل إلا بالنظر إلى موقعها داخل السورة.

ثالثا: السياق في الترجيح بين الأقوال

اعتمد ابن عاشور على السياق في ترجيح كثير من المسائل التفسيرية، فإذا وجد قولًا ينسجم مع نسق الآيات ومقصدها قدَّمه على غيره، ولو كان الاحتمال اللغوي المجرد يسمح بغيره. ويؤكد هذا المنهج أن التفسير لا يقوم على دراسة المفردات منعزلة، وإنما على فهم النص في بنيته الكلية.

كما أن مراعاة السياق أسهمت في تفسير الضمائر، وتحديد المخاطبين، وفهم العلاقات بين الجمل، وهو ما أدى إلى تقليل التعارض الظاهري بين الأقوال وإبراز التكامل في الخطاب القرآني.

رابعا : أثر المنهج السياقي في الدراسات التفسيرية المعاصرة

أسهمت رؤية ابن عاشور في ترسيخ أهمية القراءة السياقية للقرآن الكريم، وأثرت في عدد من الدراسات الحديثة التي تناولت التناسب بين الآيات، والوحدة الموضوعية للسور، والتفسير المقاصدي. كما أبرزت أن عزل النص عن سياقه قد يؤدي إلى نتائج تفسيرية غير دقيقة، في حين أن استحضار السياق يحقق فهمًا أكثر اتساقًا مع مقاصد القرآن الكريم.

الخاتمة

توصلت هذه الدراسة إلى أن السياق يمثل ركيزة أساسية في منهج ابن عاشور التفسيري، وأنه اعتمد عليه في توجيه المعاني، وترجيح الأقوال، وإبراز الترابط بين أجزاء النص القرآني. كما تبين أن تفسير *التحرير والتنوير* يجمع بين التحليل اللغوي والبلاغي والمقاصدي، مما يمنحه قيمة علمية كبيرة في ميدان الدراسات القرآنية.

وأكدت الدراسة أن القراءة السياقية للنص القرآني تسهم في الحد من الفهم المجتزأ، وتساعد على إدراك وحدة الخطاب القرآني وانسجامه، وهو ما يجعل منهج ابن عاشور نموذجًا جديرًا بالاستفادة منه في البحوث التفسيرية المعاصرة.

النتائج

- السياق من أهم أدوات فهم القرآن الكريم وتوجيه دلالاته.
- اعتمد ابن عاشور على السياق اللغوي والموضوعي والمقاصدي في تفسيره.
- أسهم السياق في ترجيح الأقوال التفسيرية عند تعدد الاحتمالات.
- أبرز منهج ابن عاشور وحدة السورة وترابط آياتها.
- يقدم *التحرير والتنوير* نموذجًا متوازنًا يجمع بين أصالة التفسير والقراءة التحليلية.

التوصيات

- تشجيع الدراسات التطبيقية المتخصصة في توظيف السياق في كتب التفسير.
- العناية بالربط بين علوم اللغة العربية وعلوم القرآن في الدراسات العليا.
- إجراء مقارنات منهجية بين ابن عاشور وغيره من المفسرين في استخدام السياق.
- الإفادة من المنهج السياقي في معالجة الإشكالات التفسيرية المعاصرة.
- تعزيز الدراسات التي تربط بين السياق ومقاصد الشريعة في تفمسير القرآن الكريم.

المراجع.

1. ابن عاشور، م. الط. (د.ت.). *التحرير والتنوير*. الدار التونسية للنشر.
2. ابن تيمية، أ. ع. (د.ت.). *مقدمة في أصول التفسير*. دار الكتب العلمية.
3. الذهبي، م. ح. (2000). *التفسير والمفسرون* (ط 8). مكتبة وهبة.
4. الزركشي، ب. ع. (د.ت.). *البرهان في علوم القرآن*. دار المعرفة.
5. السيوطي، ج. ع. (د.ت.). *الإتقان في علوم القرآن*. دار الفكر.
6. الشنقيطي، م. الأ. (د.ت.). *أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن*. دار الفكر.
7. منّاع القطان. (2000). *مباحث في علوم القرآن*. مكتبة وهبة.